التعليم و التلقين و إشكاليتهما في فكر العلامة عبد الرحمن ابن خلدون

مسكين دليلة

Education and indoctrination and their intricate thinking mark Abd al-Rahman Ibn khaldun

Dalila Meskine

المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان /الجزائر

meskindaa999@gmail.com

ملخص:

تجري في عصرنا الحاضر الكثير من الطرائق البيداغوجية داخل غرفة الصف الدراسي لا لشيء إلا لإحداث نقطة نوعية في تحويل الإنتاج البشري إلى ما هو أفضل، كون المؤدى في تغيير الذهنيات لا أصل يثبت له إلا في البيئة المدرسية، ولأجل هذا ارتأينا أن نلجأ إلى عصر أحد أجدادنا وهو العلامة عبد الرحمن ابن خلدون "[1] لنسلط الضوء على بعض ما أهمنا في الجانب البيداغوجي، بدء من الحضارة وما تحويه من وسائل معينة على التعليم لغرض العلم، ومن دور المعلم في توجيه المتعلم بين آفاق التمدن وكثرة التطور،ثم أردفنا عليهما حديثا عن المادة التعليمية وأهم طرق التعليم المساهمة في استقطاب العلم، وخلصنا في الأخير لاجئين إلى التنبيه لضرورة بعث ابن خلدون من مرقده ليشاركنا هموم التربية وما آل إليه وضعها في المدرسة الجزائرية، ونحن نعلم مقدار القيمة الفكرية والعلمية والثقافية التي حواها تراثه .

الكلمات المفتاحية :التعليم، التلقين، الملكة، المتعلم، الاكتساب، طرائق تدريس العلوم.

Abstract :

In modern time, many teaching methods in class rooms, if only to make a human shifting production to better quality, con leading change in mentalities are found only in the school environment, and for this we decided to go to the one of our brand, Abd al Rahman Ibn khaldun ¨the highlight of some ahmna in pedagogical side, staring from civilization and its specific means of sience and education for the purpose of our teacher is to guide the learner between urbanization and development prospects, and then they ardfna newly teaching material and teaching methods contribute to the polarization of the science , and have come to the concerns the last people to pint to the need to sent by Ibn khaldun laid, to share the concerns of education and the status in Algerian schools, intellectual, scintific, and we all know much value contained on his legacy .

Keywords :education, indoctrination, Queen, learner, acquisition , methods of teaching science .

المقدمة:

تلونت الآراء حول مشكلة التعليم والتلقين وطرق إفادتهما ـ وإن كان البون واضحا بين المصطلحين من منطلق وضعهما في الواقع ـ ونذكر من بينها رأي المفكر العربي ابن خلدون، الذي ومن خلال قراءتنا له وجدناه قد رجح الكفة وأفاد في مستويات عدة لا يمكن مقارنتها بغيرها، والتي حقيقة لا تزال رهينة عدد معدود من الأوراق في رفوف المكتبات، وعند عودتنا لتدارس تراث هذا الرجل أيقنا أن التربية والتطرق لمشكلتها قد نالت حظا وفيرا من فكره، وفي الحين ذاته طواه التاريخ وتغافل عنه أهل التربية والباحثون لأسباب عدة نستجلي منها سببين أساسيين، أما السبب الأول فهو قيام العلامة بتوزيع أفكاره "..في مشكلة التربية على ما يقل عن عشرة فصول من المقدمة ...مما يصعب على الباحث أن يهتدي بسهولة إلى أشتاتها و يعيد ترتيبها وتبويبها من جديد حتى يخرج بفصل مركز في التربية .... والسبب الثاني هو أن ابن خلدون فعل كما فعل في كل القضايا الفكرية والثقافية الأخرى، وكما فعل بالخصوص بمادة الأدب واللغة، قد ربطها بالحياة الاجتماعية ...وهذا ما يتضايق منه أهل الاختصاص في عصرنا ...فإننا من وجهة الفكر الأخلاقي لا نتلاقى مع التربية إلا على الصعيد الاجتماعي ...وهو الصعيد الذي يتوقف فيه مصير المجتمع والدولة على التعليم، كما يتوقف فيه مصير التعليم على حيوية المجتمع وازدهار حياته وتبصر الدولة وعنايتها بشؤونه ..."[2]

وأي ما يكن الشأن في كثرة الأسباب وإقامة الحجج حول هذا الفكر الذي ظل يقبع خلف زوايا النسيان .فإنه يمكن أن نقرّ بأن الرجل مدنا بما يلبي حاجتنا في تقويم التعليم والنهوض بمستوى المنظومة التربوية إلى ما هو منتظر ومطلوب، ولو قصرنا على السطحيات في تدارس قضايا التعليم في المدارس وحدها دون التوجّ في منابت الأصول لما أمنا أن يفضي بنا ذلك إلى مجرد بلبلة حول علم هو في أغلب الأحايين يفرض علينا أسسا و قواعدا، يشق علينا السير وفق مراحله والتشابك مع خطوطه من غيرها .

يؤكد العلامة ابن خلدون أن طلب العلم وبالتعليم يستلزم الإلمام بمبادئه وقواعده الأساسية مقرا أن التعليم صناعة من الصنائع إذ يقول :"إن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في مبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلا، وهذه الملكة في غير الفهم

والوعي، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن ووعيها، مشتركا بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يعرف علما، وبين العالم التحرير. والملك إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون سواها، فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي، والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن والدماغ، من الفكر وغيره كالحساب، والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم..."[3]

ونفهم من هذا أن العلم موجود عند العالم والأمي ما داما يحملان الدن وعنصر الدماغ و هما أحدا الملكات .وعبر عنهما بالجسمانيات، إلا أن هذه الجسمانيات بحاجة إلى التعليم فهي تفتقر إليه ومعنى ذلك أن للتعليم دورا عظيما في تواجد العلم بل والحذق فيه، وننتهي من قوله أن "التعليم ضرورة أساسية للإنسان فمن خلاله يكتسب إنسانيته ويحقق كيانه ففي المجتمع البدائي مثلا يحقق الإنسان شروط وظروف وجوده من خلال اكتسابه للخبرات البسيطة كصناعة أدوات الصيد وإتقان مهاراته والتي و التي يتعلمها من أبائه وأفراد عشيرته بالدرجة الأساسية ..."[4] ويعرف على الصعيد التربوي على أنه "عملية اجتماعية انتقائية تربوية هادفة تتفاعل فيها العناصر كافة التي تهتم بالعملية التربوية من إداريين ومشرفين ومدرسين وتلاميذ ...والتعليم هو نشاط تواصلي يهدف إلى إثارة دافعية المتعلم وتسهيل التعلم، ويتضمن مجموعة من النشاطات والقرارات التي يتخذها المعلم أو الطالب في الموقف التعليمي، كما أنه علم يهتم بدراسة طرق التعليم وتقنياته ... وهو تصميم مقصود أو هندسة للموقف التعليمي أو الخبرات التعليمية بطريقة ما بحيث يؤدي ذلك إلى تعلم أو إدارة التعلم التي يشرف عليها المدرس"[5]

ونستنتج من جملة هذه التعريفات أن قيمة التعليم في حياة الفرد والجماعات عظيمة جدا سواء على المستوى الاجتماعي، أو المستوى التربوي داخل المؤسسات البيداغوجية اللذان يتداخلان ويكمل كلا منهما الآخر.

لقد بات من الواضح أن أمر التعليم والتعلم وتلقين العلوم ومسائلها إلى المتعلمين لا يستقيم له وضع إلا في خضم التطور الحضاري والرقي الاجتماعي، ولما كانت المؤسسات التربوية مرهونة بذلك التطور الاجتماعي، وإحدى فصائله بل مجمع تنظيماته، وما يعزب عن أحد الروابط المتينة التي تأسر بينهما، وهنا تستوقفنا واحدة من بينها، وهي كثرة العمران والتمدن والتي تكون سببا في الانصراف إلى زيادة العلوم وصنائعها وهذه الأخيرة "...إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها

في الكثرة لأنه أمرا زائدا عن المعاش فمتى ففضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع..."[6]

وإذا تدرجنا تجاه آراء القائلين :بأن البداوة دافع أساس إلى التعليم والتعلم ثم إن معظم العلماء الأفذاذ منبتهم الأساس يعود في الحقيقة إلى البدو لا إلى الحضر، فهم أهل بدو بامتياز ننصرف حينها إلى قول العلامة ابن خلدون المتضمن معنى أن من فترت فيه ملكة العلم من غير الحضر يفتقر إلى التعليم الصناعي ولذلك"...من تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار المستبحرة شأن الصنائع في أهل البدو كما قدمناه، واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوفت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين، ولما تناقص عمرانها وابذعرّ سكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام "[7]

واستنادا إلى قول العلامة السالف الذكر يتبدى لنا أن الارتقاء بالمتعلمين وتعزيز دافعيتهم إلى العلم والاستفادة مما فطروا عليه من مواهب يحتاج إلى دعم مادي يستأثر بجملة صنائع الحضارة ومنها "...نصل مع ابن خلدون إلى أن العقل البشري في تفتح مستمر ولا يبلغ أوج نشاطه إلا في المجتمع المتحضر وذلك لتوفير الوسائل الضرورية، و انفساح المجال للعمل والتمرين عليه فتزداد قدرة العقل على العمل والإنتاج والابتكار، وكذلك فكلما كثرت العلوم والصنائع ازداد الفرد البشري معرفة وعلما زائدا وذلك لاحتكاكه بالآلة ووسائل العمل ..."[8]

وما يتطلب فعله منا هو توفير هذه الوسائل بين أيدي التلاميذ خاصة في مناطق البدو أو ما اصطلح عليه اسم الأرياف والدواوير، أو نقلهم إلى حيث توفر الصنائع وزخم الحضارة وما تحويه من مؤثرات مادية تسهم بشكل أو بآخر في شد عضد هذا المتعلم، ليظل في بيئة التعليم بين مستفيد كمتعلم، ثم مفيد لمجتمعه بعد تلقينه جملة علوم، وهذا ما تنشده التربية الحديثة باعتبار أن " الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينحلونه من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ...فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ..."[9] ولهذا فالمتعلم كلما ابتعد عن بيئته الاجتماعية وتوسع خارج أطر قوقعتها، حيث يكثر معلميه، ويقع تواصله بهم، زاد

انجذابه إلى العلم والتعليم، في حين أن انقطاعه عن أهل العلم يرمي به إلى الابتعاد عن التعليم، وضعفت ملكته في ذلك. وحتى "الاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يضن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا لمباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعداد المشايخ يفيده تمييز أنحاء تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه، ويميزها عن سواها .مع تقوية ملكاته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم ...فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال..."[10]

ومما لاحظناه في قراءتنا أن العلامة ابن خلدون قد نبه إلى دور العمران وما يضمه من متطلبات تسعف طالب العلم، كما حبذ الرحلة لاستقطاب العلوم من الأمصار المتحضرة إلا أنه لم يغفل دور معلم العلوم أو الشيخ فهو أحد أطراف العملية التعليمية والعضو الفاعل فيها بل ويعده العلامة سند التعليم لقوله "...ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل، ويدل على أن التعليم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم ؛إذ لو كان من العلم لكان واحدا عند جميعهم ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وكذا أصول الفقه وكذا العربية، وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته، تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة ؛فدل على أنها صناعات في التعليم..."[11] وغالبا ما يبصم هذا المعلم على كافة أعضاء صفه الدراسي بما في حوزته من أساليب وطرائق خاصة موجها المتعلم نحو الهدف التعليمي المقصود "..ويحرص دوما على وضع استراتيجيته التدريسية وتنفيذ طريقته بأسلوبه الخاص ...وإن أفضل تخطيط يقوم به المعلم ما يفعله استنادا إلى حاجات الطلاب لا رغباته هو، فالمعلم يجب أن يتمتع بالمرونة الكافية في الطرق و الأساليب وثبات في الأهداف "[12]. بيد أن الوسائل ونوعيتها الجيدة لا تمد المتعلم بشيء من العلم ما لم يكن هناك موجها ـ المعلم - له. كعضو بيداغوجي تربوي أساس ومهم داخل الفصل الدراسي وخارجه .ثم و في الواقع إننا نلحظ فيما قلناه سلفا عن الحضارة وكيف تعظم ملكة التعلم و الإقبال عليه لدى المتعلم كان لابد من فعله في زمن ربما يبعد أمده كثيرا عن وقتنا الحالي -وليس تعاليا أو تجاسرا على العلامة ابن خلدون-نظرا لما آلت إليه أوضاعنا اليوم، حيث ذيوع هذه الوسائل في كل البقاع حتى لترى البدوي صار اليوم ينافس

غيره من أهل الحضر وعلى قلة مداخله في المأكل والمشرب والملبس، وحتى في هذه التقنيات العصرية ذاتها، ونخص بالذكر الوسائل التي تسهم في رفع مستوى التعليم لدى طلابه وتعينهم عليه، ولذلك نردد أبدا أن العيب ليس في الحضارة والتطورات التكنولوجية الحاصلة فيها، وإنما مكمنه الأساس في طرق استغلالها .

وقد يشرد الذهن إذا قرأت للرجل -ابن خلدون-في تقسيمه العلوم بينما هي مقصودة بالذات وأخرى عبارة عن آلات ملموسة في قوله "واعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة، وعلوم هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط..." [13] وهنا يعرج بنا العالم على فكرة أن الوسيلة لا تنحصر في التقنية أو الآلة التي "تحمل الرسالة من المرسل إلى المستقبل ...التي تستخدم في مواقف الاتصال التعليمي :الكتب، المجلات، الصحف، الراديو ...الانترنت "[14] وكفى وإنما هناك من العلوم ما تعد وسائل للعلم المقدم إلى التلاميذ. فعندما ندرس التلميذ في المرحلة الثانوية مادة الفلسفة فنحن ندرسه إياها بوسيلة المنطق، وعندما نقصد تدريسه علم الكلام فلابد من اللجوء إلى اللغة العربية أثناء الحديث الشفهي كوسيلة أيضا له، كون أن الوسائل الآلية تقتضي إجادة العلوم الآلية " ومن العسير فصل قناة الاتصال عن لغة الاتصال فلا توجد لغة بدون أداة ...فالعلاقة تكاملية بين اللغة والأداة وغير قابلة للفصل .واللغات هي مزيج من التفاعل بين الأفكار وأدوات نقلها "[15] وفي المقابل يجب أن لا نطالبه هذه الوسيلة وإجادتها كلها، إلا إذا كان تخصص فيها .وقتها يحق له التعمق في مسائلها ما استطاع أن يفعل وذلك " لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد ؟فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسائلها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقف به عنده .فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل، ورأى من نفسه قياما بذلك وكفاية به فليرق له ما شاء من المراقي صعبا أو سهلا .وكل ميسر لما خلق له "[16] .وحقيقة نجد أنفسنا وقت دفعنا المتعلم ليقع فريسة تقضمها هذه الوسائل وإن وجه من قبل معلمه التوجيه الصحيح قد و رطنا طالب العلم فيما لا يحمد له عاقبة وألزمناه هما أكبر من ذي قبل، فالإفراط في تتبع قضية العمران والتمدن، دورها في إرساء معالم الحضارة والارتقاء بمستوى حصيلة العلم لدى المتعلمين، والانقياد خلف الوسائل سواء المادية أو

تلك التي تساند على تدارس العلوم، فإننا حتما سنلج في دهاليز غامضة لا حد لها، وإن كانت تؤثر في التعليم فعلا ويتأثر بها، ولها بالغ الأهمية على ازدهاره.

وعليه فما من علم نود زيادة تحصيل ملكته وتجبيذها للمتعلم يحملنا على سوق الأنفس إلى ما جاء به ابن خلدون من آراء حول العلم ذاته المبرمج على المتعلمين على خلاف أمصارهم، إذ أنه يرى لابد من توامق مجموعة شروط فيه، تنير طريق تحصيل العلم فمثلا " كثرة التآليف[17] في العلوم عائقة عن التحصيل ...ومما أضر الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعاليم، وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، ولا يفي عمره بما كُتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور ولابد دون رتبة التحصيل"[18]

فهو يرمي بهذا إلى أنه لا نقدم كما هائلا من المعارف و المعلومات إلى المتعلم علما أن العلم الواحد ينطوي على الكثير من الاصطلاحات، ولو سخر كل عمره في إجادة تلك لما استطاع أن ينهيه، والسادة المعلمين مطالبون بعدم تحميل المتعلم فوق قدرته وخاصة في المراحل الأولى من تلقينه هذه الفنون، وكما هو ملاحظ أن التلميذ في المرحلة الإعدادية يحمل على ظهره كتبا تحوي زخما هائلا من المعارف، وإذما سئل الواحد منهم تجده لا يحيط بما يحمله ككل أو بعضا منه على الأقل، وربما يتعسر علينا نحن الأساتذة عن تعليمه كل هذه الفنون، نظرا لكثرة المواد الدراسية بخلاف التعليم قديما، وجعل أنه لا يراعى حتى اختصاص المعلم في بدليل فكرة المصاحبة ، والمتعلم في مثل هذا السن لا يستطيع أن يدرس عند أكثر من معلم، ويحق لنا هنا التساؤل :ماذا لو لم يتفق هذا المتعلم مع هذا الأستاذ لأول الأمر ويستمر في وضعه ؟ ألا يحق له أن يواصل تعليمه في المرحلة نفسها ثم التدرج إلى ما بعدها من الأطوار الدراسية ؟

ولك أن تضرب مثالا آخر في أن كثرة الاختصارات تخل بنظام التعليم وطرائقه، وأن تطورات العلم لازمت الوقوف على شاطئ عظيم المد والجزر، فهي أما أن تحيلك إلى معلومات كثيرة لا حصر لها تستوفي الشرح المطول، أو أن تضيق عليك في ركن زاوية أكبر بكثير من الأولى لكنها مليئة بالاختصارات كما " ذهب كثير المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، فصار ذلك مخلا بالبلاغة

وعسيرا على الحفظ وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان ، فاختصروها تقريبا للحظ كما فعل ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق وأمثالهم، وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد... ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم لتزاحم المعاني عليها،و استخراج المسائل من بينها لأن الألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهما حظ صالح من الوقت "[19] .وإن عمدنا إلى توجيه المتعلم نحو ذلك نكون قد قوقعناه في زمرة تحصيل قاصر لا يجديه نفعا، وسلكنا به بحر علم ينصهر بين خلط أمواجه وإن تجاوز مشكلة الاختصار وحاز على ملكة علمية فننتهي إلى الحكم بضعفها كون "الملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإطالة المفيدين لحصول الملكة التامة، وإذا اقتصر عن التكرار قصرت الملكة بقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبا بقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها "[20]

ونخلص من هذا إلى أن العلم قل أو كثر يمكننا إيصال بعضه إلى المتعلمين، ومهما بلغت درجة التوازي فيه فلن نسلم من مواجهة المشاكل إذا ما رغبنا بتقديمه، مما يفرض علينا اللجوء إلى طرائق سهلة المسالك لأجل ذلك تمكننا من تبليغ مقاصدنا وأهدافنا البيداغوجية المرجوة من التعليم بشكل جيد وملائم باعتبار الطريقة " هي الوسيلة التواصلية و التبليغية في العملية التعليمية لذلك فهي الإجراء العملي الذي يساعد على تحقيق الأهداف البيداغوجية لعملية التعلم، ولذلك يجب أن تكون الطرائق التعليمية قابلة في ذاتها للتطور والارتقاء "[21].

وما ذهبنا إليه في مذهب ابن خلدون عن المادة التعليمية المقدمة إلى التلاميذ فلا يمكننا بأية حال من الأحوال إفادة المتعلم ما لم تكن هناك طرائق ذكية وملائمة يستنبطها المعلم انطلاقا من مستوى الفرد المتعلم الذي هو بين يديه.

وتراك إن تمعنت ثم أمعنت النظر أن الرجل لم يغفل هذا في فكره بل أسهب وفصل حتى لتظنه وأنت تقرأ له أنه لم يحمل هما أكبر مما قاله أكثر من هم التعليم وطرق إفادته، ومنه ننطلق للغوص في أعماقها ـ طرق التعليم مع العلامة ابن خلدون-بدء من الطريقة التلقينية "...لأن البشر

يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يحلونه من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء .وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا إن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا ..."[22] وهنا نؤكد أن الطريقة التلقينية هي الطريقة الحيدة الموحدة بين الشيوخ والمعلمين لأننا ومن غيرها لا نستطيع الإلمام بالعلوم، وهي قد لاقت لسعا شديدا بالألسنة خارج مقاعد التعليم ودعما وبالوسيلة نفسها داخل الحصص الدراسية ولا تزال إلى يومنا هذا ثابتة ولك أن تنظر فيما يرويه الواقع المدرسي وقد تعد الطرائق التي أردفت عليها من خصوصيات الأفراد المدرسين وتحاك بخيوط اجتهاداتهم الفكرية والمعرفية، لأن لكل مدرس أو شيخ مفاهيم وطرق تختلف عن غيره كما أن الواحد منهم يستطيع أن يحمل العديد من الطرق في الفن الواحد، وفي الدرس الواحد، وحتى في الجزئية الواحدة المنفردة من الدرس، ونحن لا نريد بهذا إقصاء هذه الطرق فهي بمبادئها وأسسها تفيد المعلم في بعض جوانب درسه وتفيد المتعلم إذا أراد النزول إلى واقعه الاجتماعي، لكن نعود ونقول أن الطريقة التلقينية ستظل المهيمن الوحيد وبدون منازع وفيها قد أورد ابن خلدون مبادئ تتقاطع في الغالب مع قواعد وقوانين المقاربة بالكفاءات، فتجد الرجل يتحدث عن التلقين والتعليم وينادي بالتدرج في تقديم العلوم وأناء التعليم، وقد نفرد هنا حديثا خاصا عن اللغة مادامت هي مقصدنا ومجال بحثنا "إذ يعد التدرج في تعليم اللغة أمرا طبيعيا يتماشى مع طبيعة الاكتساب اللغوي نفسه ولذالك لابد من أخذ هذا العامل بعين الاعتبار أثناء وضع البرنامج التعليمي "[23] وعند تقديم محتواه إلى التلاميذ لأن " تلقين المتعلمين للعلوم إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا وقليلا قليلا..."[24] محتسبا في تدرجه هذا قوة استعداداتهم العقلية و النفسية والجسمية فالاستعداد عند ثورندايك من أحد القوانين الثلاثة التي تتحكم في التعلم بالمحاولة والخطأ وإن كان حصره في الجانب النفسي والجسمي بدليل " إذا لم يكن المتعلم مهيأ نفسيا للتلقي من أجل اكتساب الخبرة أو المهارة المقصودة، فإن التواصل بين المعلم والمتعلم سوف ينعدم، الأمر الذي يجعل الهدف المتوخى من عملية التعلم بالمحاولة والخطأ التي هي أساس قائمة على تجاوز العوائق والصعوبات التي تعترض سبيل المتعلم كما يرتبط تهيؤ الطفل واستعداده لتعلم مهارة ما بنموه العضوي والعقلي والعاطفي والاجتماعي، شكل كل هذه الجوانب مجتمعة أرضية الاستعداد في عملية التعلم "[25] وجاء عن ابن خلدون في هذا الصدد أنه لابد من مراعاة استعداد الطفل أثناء تعليمه بقوله "...ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن .."[26] ولم يقتصر العلّامة ذلك على مرحلة معينة من

مراحل التعليم كبداية تلقين الفن أو وسطه أو آخره بل قال معبرا بجملة (حتى ينتهي إلى آخر الفن) ويفيد قوله استمرارية مراعاة الاستعداد في الفعل التعليمي التعلمي من أوله إلى آخره. كما أوردنا سلفا، ونصل إلى تقريبه إليه، إلا أن ذلك الشرح غير مكتمل وعندئذ ولما يتم له مراعاة مستوى التلاميذ، وتدريج المادة في تلقين العلوم على حسبه، فعليه طرق سبيل آخر من أجل ترسيخ العلم حيث تحصل الملكة وتستوفي ونريد بهذا السبيل عنصر التكرار كعامل يزيد من دافعية التعلم حيث "يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحا على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ؛إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله "[27] فالمعلم هنا يشرح له العلم جملة من أوله لآخره ومراعيا قدراته العقلية واستعداداته كما أوردنا سلفا، ونصل إلى تقريبه إليه، إلا أن ذلك الشرح غير مكتمل، وتعد مجرد خطوة أولى يخطوها المعلم وبشكل عام وسطحي في التدريس "...ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته "[28] وهي المرحلة الثانية في تقديم الدرس ؛إذ يتوجب عليه العودة إلى الخطوة الأولى لاستيفاء الشرح الذي قد شرع فيه ويفصل له في المجمل، ويفكك الفهم العام ويخصص له مسائل العلم حتى تجود ملكته، وينساق بعدها خلف مرحلة ثالثة وأخيرة والتي يقر فيها ابن خلدون قائلا "ثم يرجع به وقد شدا، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا منغلقا إلا أوضحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا هو وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه "[29] ويفيده تعليما في هذه النقطة لما يرجع إليه وبعد أن استوعب العلم ويشرح له ما استعصى عليه فهمه وانغلق عليه مقفله فيه، وقد لا نلقي هذه التكرارات على الشواذ من الأذكياء الفطناء بالفطرة وبالطبيعة الخلقية وهم فئة قليلة بين صفوف المتمدرسين .

أما إذا أخذنا بما هو واقع في المدرسة الجزائرية امتحان تحصيلي في بداية السنة الدراسية أو الحصة التعليمية، وآخر تكويني وسط الحصة وثالثهما تقويمي، فلا نظنه يؤتى أكله إلا بعد حصول هذه التكرارات، لأنه إذا كثرت الأسئلة والاختبارات الثلاث ومن دونها - التكرارات

- ذهب زمن الحصة وأخذ في مهبه زمن التعليم الذي هو الثمرة، وخاصة في ظل اكتظاظ الأقسام بالمتعلمين

وقد تستوقفنا هنا نقطة أعظم من سابقتها ـ التكرار - في أراء هذا الرجل حول العلم وقضايا التعليم، ونقصد من بها الخلط أو المزج بين علمين في فترة تلقين العلوم لأن "من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ؛ فيستغلقان معا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة، وإذا تفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصرا عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله الموفق للصواب "[30] وهذا العائق انجلى بشكل لافت للانتباه في مدارسنا الجزائرية، فيما يتعلق بتعليم اللغة الفرنسية للمتعلمين المبتدئين، ونعني بالذكر أولئك الذين يخدرون من بيئات يقل فيها الاستعمال اللغوي للمصطلحات الفرنسية، مما يجعلنا نؤمن بفكرة استقلالية النظام اللساني،" كون العملية التعليمية الناجعة للغة تقتضي إدماج المتعلم مباشرة في الوسط الاجتماعي للغة المراد تعليمها مع الحرص الشديد على عدم اتخاذ اللغة الأم وسيطا لتعلم اللغة الأجنبية حتى وإن كانت اللغتان متقاربتان جدا لأن ذلك سوف يؤدي إلى الإحباط والفشل في امتلاك النظام القواعدي للغة الثانية "[31]

ثم وإن استكملت هذه الطرق، وامتلأت بها حوزة المعلم واستتب أمره فيها، عليه أن يختم عليها ويقبض على زمامها بالتوسط والاعتدال بين الليونة والصرامة وليعلم "أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم، وذلك أن إرهاف الحد في التأديب مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة "[32] فتأديب الكبار تختلف طرقه عن تأديب الصغار، فالأطفال سوف لن يستقيم عودهم تحت وطأة التشديد المتجاوزة حدودها بحجة أن " من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين والمماليك والخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن[33]،وهي الحمية والمدافعة عن منزله، وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد أسفل سافلين "[34] ولنا رأي هنا واتحادا مع القول نرد به على المعتقدين فكرة أن زمرة الذين تربوا بالقهر هم الآن في أوج التقدم وأسمى المراتب، عاقدين ـ نحن ـ قولا

مناهضا أنهم قد أخلطوا بين قهر المجتمع الذي لا ملجأ لمن قهر فيه منه، وبين قهر المعلم الذي يضيق على متعلمه ليستنجد بالمجتمع الخارجي ذا الدائرة الأكبر في كل المجالات، ويسترحمه فيعود إليه وهو فيه إما عظيما أو حقيرا منبوذا، ظالما أو مظلوما، "ولذلك ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدا عليهما في التأديب .وقال أبو محمد بن زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: "لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا". ومن كلام عمر رضي الله عنه :من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله "حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلما بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته[35].

وها هو ذا ابن خلدون يحل الضرب ويشترط فيه حدود الشرع بدلا من انتزاعه من داخل العملية التربوية وعن آخره، بحجة العصر أن التلميذ إنسان يعقل وتكفيه تربية الألفاظ الشفاهية لوحدها، وكان مؤداه هو تسلط التلميذ على معلمه، بل ورفع السوط عليه في عصرنا الحالي، بعدما كان هو حق المعلم في التربية والتأديب والتعليم، وأحد قوانينه بل وطريقة من طرائق التقويم البيداغوجي على شساعة مفاهيمه ، وباطلا انتزع منه وانتهك .مع أننا لا نريد الضرب المبرح بل قليله يغنيك عن كثيره إذا كنت لبيب عقل، وضف إلى ذلك أن إحضار العصا لوحده كاف لتقويم الاعوجاج ومن دون الضرب، لكن مع قليل الانضباط وعدم التراجع في القرارات المتخذة.

و في ختام الكلام يجوز لنا الجزم ومن خلال هذه الإطلالة السريعة على جزء غير كثير في التراث الفكري للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون، أن التعاليم التي أسدانا إليها في المجال التعليمي التربوي عظيمة جدا، و إذا ما قارنّاها والواقع المدرسي المعيش حاليا، نجد أن تراثه لم ينزل إليه إلا بعض ذرات من الكلام عنه قلما يتلفظ بها، أو تقدم في شكل نصوص اختبارات بعد مضي فترة من التعليم يطالب المتعلم بحلها، وهو بعيد كل البعد عن فهمها وعن وعي حتى اللغة المستعملة فيها .

فمن جادت ملكته ووعيها من النجباء سيعقب لا محالة على طرائق معلميه لذا من الواجب تطبيقها والعمل بها قبل تقديمها كمادة امتحان إلى المتعلمين....وأما من تراجعت ملكته في تحصيل

العلم. فتجده يكسر النص تكسيرا لا هو مع هذا ولا مع ذاك، ولنعلم أن التهمة ستقع على عاتق المعلم وحده وفي مسؤولياته .

ولنخرج من المجال البيداغوجي الخاص بعد الجزم بأنه سوف لن ينتهي أثر أفكار ابن خلدون في هذا الميدان مادامت التربية قائمة بأشكال القوة أو صور الضعف . كونها تعاليم مستمدة وبدون منازع من الدين الإسلامي إلى ما هو أعم منه -المستوى الاجتماعي -ونقول من استطاع أن ينهل من فكر الرجل تمكن من إحراز ثورة فكرية لغوية ثقافية جمة لا يستهان بها "وإذا كان شيئا يتحتم القيام به فهو العودة إلى آثار الرجل لتفهم ماضينا وإضاءة حاضرنا، إن العودة إلى مفكر في القرن الرابع عشر ليست عودة إلى البكاء على الأطلال، وإنما عودة للتأمل في عمل رجل عالم، لأخذه نقطة انطلاق لأعمالنا بعد تصحيح بعض النظريات التي لم تعد صالحة لمواكبة الاستكشافات العلمية الحديثة، والأخذ بيدها إلى العالمية، وإن العودة إلى أفكار الرجل ليست عودة إلى الاعتزاز والفخر، ولكنها عودة تذكرنا بأننا ضيعنا وقتا ثمينا لم ننتبه فيه إلى تراث أحد أجدادنا العباقرة "[36]

هوامش الدراسة

[1] هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ابن خلدون الحضرمي، ولد في تونس في رمضان سنة 1332 م-732 ه حيث نشأ بها وتعلم، سافر إلى عدد من البلدان العربية، لجزائر، المغرب، الأندلس، مصر وعمل فيها. توفي سنة 1406م-808ه في رمضان بمصر، دفن في مقابر الصوفية ولا يعرف له مكان محدد.

[2] عبد الله شريط .الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .الجزائر .(د.ط).1981 م. ص 646.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون .المقدمة .تحقيق خليل شحادة .دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع .بيروت لبنان .ط 1 .2003 م.ص 413.

[4] ابتسام صاحب موسى الزويني. أساليب التدريس قديمها -حديثها. دار المنهجية للنشر والتوزيع .عمان .2015 م .ص 23.

[5] المرجع نفسه .ص 27

[6] عبد الرحمن ابن خلدون .المقدمة .ص 416.

[7] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة .ص 416-417

[8] ابن عمار الصغير. التفكير العلمي عند ابن خلدون. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .الجزائر .(د.ط).1969 م . ص 112-113

[9] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة .ص 559

[10] - المرجع نفسه .ص 413

[11] المرجع نفسه، ن ص .

[12] د/مثنى عبد الرسول شكري -رحيم كامل صبحي .التدريس بين النظرية والتطبيق . دار المنهجية للنشر والتوزيع .عمان .ط1. 2016 م .ص 18

[13] عبد الرحمن ابن خلدون .المقدمة .ص 555

[14] د/خضرة عمر المفلح .الاتصال -المهارات والنظريات وأسس عامة .دار الحمد للنشر والتوزيع.عمان ط 1. 2015 م. ص 18

[15] المرجع نفسه .ص ن.

[16] عبد الرحمن ابن خلدون .المقدمة. ص 555-556

[17] وكتبت بالواو والألف في نسخة أخرى ـ التواليف-

[18] المرجع نفسه .ص547

[19] المرجع نفسه .ص 551

[20] المرجع نفسه .ص ن.

[21] أحمد حساني .دراسات في اللسانيات التطبيقية ـ حقل تعليمية اللغات -ديوان المطبوعات الجامعية .الساحة المركزية .بن عكنون الجزائر .ط2 .2014م.ص142

[22] المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، ص 559 .

[23] المرجع نفسه .ص145

[24] العلامة عبد الرحمن بن خلدون ـ المقدمة ـ ص511

[25] أحمد حساني -دراسات في اللسانيات التطبيقية-حقل تعليمية اللغات -ص63

[26] العلامة عبد الرحمن ابن خلدون .المقدمة ص 551

[27] المرجع نفسه ص 552

[28] المرجع نفسه ص 552

[29] المرجع نفسه، ص. ن

[30] المرجع نفسه، ص 553

[31] أحمد حساني دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات -ص 133

[32] العلامة عبد الرحمن ابن خلدون -المقدمة - ص558

[33] المرجع نفسه.ص ن

[34] وفي نسخة أخرى وردت بالدال ـ التمدن-

[35] العلامة عبد الرحمن بن خلدون، ص559.

[36] ابن عمار الصغير -التفكير العلمي عند ابن خلدون .ص 132